

العلاقة بين التراجم والحوادث في حوليات

إنباء الغمر بأبناء العمر
لابن حجر العسقلاني

محمد كمال الدين عز الدين

موضوع العلاقة بين التراجم والحوادث في موسوعتنا التاريخية التراثية من الموضوعات التي تناولتها أقلام كثيرة وأثارت حولها جدلاً لا حدود له. ولا يهمننا في هذا الصدد تتبع هذه الظاهرة ومناقشتها تفصيلاً أو إثباتاً، وإنما غايتنا أن نقرر حقيقة لا مجال للشك فيها، لكونها مبنية على دراسة لأغوار كتاب «إنباء الغمر بأبناء العمر» مفادها أنه توجد علاقات وثيقة بين مادة الكتاب: أحداثه وترجماته، وأن هذه العلاقات لم تأت عفوية أو ارتجالية، وإنما كان وراءها أصبع «ابن حجر» التي وجدت في مناسبة الوفاة فرصة لاستخدامها في تحقيق هذه الغاية.

ومن الممكن أن نتبع العلاقة بين التراجم والحوادث لديه على الأوجه التالية:

أولاً — العلاقة الزمانية بينهما:

توجد بين التراجم والحوادث في حيز الحولية الواحدة علاقة زمانية لاشتراكهما من حيث الوقوع والحدث في حيز زمني واحد، وهو الحول الواقع فيه كلاهما. باعتبار أن الوفاة ذاتها حدث تاريخي. فالعلاقة بينهما علاقة إثبات وتوزيع لحوادث ذوات نوعيات مختلفة من حيث التوصيف، الأولى: تحتوي على أخبار متنوعة بين سياسية

وإدارية وثقافية.. والثانية: ذات تنوع مماثل — تقريباً — من حيث التوصيف، بيد أنها تتفوق عليها من حيث المنهج لحملها سمة مشتركة هي: الإخبار عن الوفاة ومفارقة الحياة المألوفة، مما جعلها تجتمع في حيز مكاني واحد، يلي — غالباً — الأحداث المذكورة في الحولية الواحدة، ويكون ذيلًا عليها. وإن تناثرت بعض ترجمات الوفيات وأخبارها في صدر الحوادث أو خلال سردها.

ثانياً — العلاقة من حيث الموضوع:

وهذه العلاقة السالفة اقتضت من «ابن حجر» توزيع معلوماته التاريخية الواردة في مؤلفه على جزئي الكتاب: أحداثه وترجماته متبعاً خطوات، وسالكاً مسالك منها:

(أ) الترجمة بالإحالة الكلية على الحوادث: وفيها يرد اسم المترجم له في الوفيات مجرداً — في الغالب الأعم — من أية معلومات، اكتفاء بالإحالة إلى الحوادث، التي غالباً ما تكون سابقة على ترجمته. ومن أمثلة ذلك ما ورد في ترجمة «ألباي اليوسفي» ضمن وفيات حولية خمس وسبعين وسبعمئة، حيث ذيل على اسمه بالعبرة التالية: «.. تقدمت ترجمته في الحوادث»^(١)، وما ورد في حولية ثمان وسبعين وسبعمئة حيث ترجم للملك «الأشرف شعبان» بقوله: «... مات مقتولاً في ذي القعدة، وقد تقدم ذكره في الحوادث. عاش أربعاً وعشرين سنة»^(٢).

(ب) الإحالة إلى الحوادث في تضاعيف الترجمات: وفيها يحيل في تضاعيف ترجماته إلى الحوادث، مكثفياً فيها بهذه الإحالات، أو يلخص ما تعلق بشخصية المترجم له محيلاً إلى تفصيلاتها في الحوادث. ومن ذلك ما ورد في حولية اثنتين وثمانين وسبعمئة بخصوص ترجمة «ابن عرام» من إحالة إلى الحوادث قائلاً: «... تقدم ذكر

(١) ابن حجر العسقلاني. أنباء الغمر بأبناء العمر (ط. القاهرة) ص ١/٦٤ .

(٢) نفسه ص ١/١٤٠ .

قتله في الحوادث»^(٣). يريد بذلك خبراً أشار فيه إلى تسميره وإنزاله، وضرب ممالك «بركة» له بالسيوف، ثم تعليق رأسه بعد مقتله على باب زويلة، نتيجة لانتهامه بقتل «بركة» بغير إذن له، وإن أظهر خط الأمراء بذلك^(٤). والشيء نفسه يفعله بترجمته «لكبيش بن عجلان» قائلاً: «.. قتل في الوقعة التي تقدم ذكرها في الحوادث»^(٥). راداً ذلك إلى خبر ورد في الحولية نفسها هو: «.. وفيها جمع كبيش العربان ونهب جدة، وأخذ منها للتجار ثلاثة مراكب، وتقاتل هو وعنان أمير مكة فقتل كبيش في المعركة بعد أن كاد يتم له النصر، وذلك بأذاخر بالقرب من مكة»^(٦).

(ج) الإحالة في الحوادث إلى ترجمات الوفيات: ويتجلى ذلك من خلال تتبع بعض الإحالات الواردة في «الحوادث» رداً على «الترجمات»، ومنها ما ورد في حوادث حولية تسع وثمانين وسبعمائة في معرض الإخبار عن السبب في عزل «أبي البقاء» من القضاء من قوله: «.. وقرأت بخط القاضي تقي الدين الزيري أن سبب عزل أبي البقاء ما تقدم من قضية أمين الحكم..»^(٧)، والقضية المشار إليها وردت في ترجمة «أحمد بن محمد الزركشي» — أمين الحكم بالقاهرة — الواردة ضمن ترجمات وفيات حولية ثمان وثمانين وسبعمائة مسندة إلى المصدر عينه، حيث يقول: «.. وضاع للأيتام عنده أموال عظيمة، قرأت بخط تقي الدين الزيري أنها تزيد على ثلاثمائة ألف درهم تكون نحواً من خمسة عشر ألف دينار، فبيع موجوده فكان دون النصف.

(٣) نفسه ص ١/٢٢٧.

(٤) نفسه ص ١/٢١٥.

(٥) نفسه ص ١/٣٤٣.

(٦) نفسه ص ١/٣٣٢.

(٧) نفسه ص ١/٣٣١.

قلت: والذي تحرر لي أن المقاصة وقعت على ربع وسدس عن كل درهم. وبلغ السلطان ذلك فأسرّها في نفسه على القاضي حتى عزله في السنة التي بعدها^(٨). وفي أحداث حولية اثنتين وتسعين وسبعمائة يشير إلى مقتلة أهل «بانقوسا» و «حلب» وانتصار «كمشبغا» عليهم قائلاً: «.. وقتل قاضي حلب وغيره صبراً كما سيأتي في الوفيات»^(٩).

(د) الترجمة لبعض الوفيات في الحوادث: حيث ورد ذلك مع إدراك «ابن حجر» له ونصه عليه في أكثر من موضع بعبارات منها: «تقدمت ترجمته في الحوادث»، «تقدم ذكره في الحوادث»، «تقدم في الحوادث»، «وقد ذكر في الحوادث»، «مضى ذكره في الحوادث»^(١٠).

(هـ) التكامل بين الترجمات والحوادث: حيث تميز «الإنباء» بجمع حشد كبير من المعلومات التاريخية التي حاول مؤلفه إيداعها فيه مجتزئاً فأنت موزعة على الحوادث والترجمات، وكان بذلك يؤرخ بالحدث والترجمة معاً.

وسوف أقصد في هذا الموضع في إيراد الأمثلة منعاً للتطويل مكتفياً بإيراد مثالين أحدهما يتعلق بخبر لا يمكن تقديره واكتماله إلاّ بمتعلق له في ترجمة إحدى الوفيات، وهو «ضمان المغاني»، والثاني يتعلق بعلم لا تُعد ترجمته مكتملة في بابها مدركاً قيمتها — على الوجه المرجو — إلاّ بتتبع ما ورد بخصوصها في الحوادث، وهو «برهان الدين بن جماعة»، حيث أن «ابن حجر» لم يكن يؤرخ للأحداث المتعلقة

(٨) نفسه ص ١/٣٢٢ .

(٩) نفسه ص ١/٣٩٨ .

(١٠) نفسه ص ٣٢٨ — ٢/٣٣٠ — حيث ترجمته «لابن غراب» في الحوادث من حولية ثمان وثمانمائة للهجرة.

به البتة، وإنما كان يتتبع جوانب حياته بالترجمة والبسط مهيباً نفس المطالع لتقبل المعلومات الواردة في ترجمته في سنة الوفاة.

أما بخصوص «ضمان المغاني» فلقد وردت معلومات عنه في مواضع ثلاثة هي: حوادث حولية «خمس وسبعين وسبعمئة» حيث قال: «.. وفيها في صفر أبطل الملك الأشرف ضمان المغاني ومكس القرارات التي كانت في بيع الدور، وقرىء بذلك مرسوم على المنابر، وكان ذلك بتحريك الشيخ سراج الدين البلقيني، وإعانة أكمل الدين وبرهان الدين بن جماعة، ويقال: إن السلطان توعك فأشاروا عليه بذلك فاتفق أنه عوفي فأمضى ذلك واستمر»^(١١). وفي حوادث حولية ثمان وسبعين وسبعمئة حيث ورد قوله: «.. فيها تمرض السلطان ثم تعافى ثم انتكس.. وفي أثناء ذلك كان ابن آقبا آص تكلم في إعادة ضمان المغاني، فبلغ ذلك برهان الدين بن جماعة فغضب وامتنع من الحكم فتكلم الشيخ سراج الدين البلقيني وغيره مع السلطان في ذلك فأنكره وأمر بإبطال ذلك من مصر والشام وقبض بعد مدة يسيرة على ابن آقبا آص ونفي إلى الشام وصدور. وكان ضمان المغاني من القبائح الشنيعة، ما كان أحد يقدر يعمل عرساً حتى يغرم قدر عشرين إلى ثلاثين مثقال ذهب، وكانوا بمصر والقاهرة لا تغيب مغنية عن بيتها — ولو إلى زيارة أهلها — إلا أن أخذ منها الضامن لها رشوة. وأما ببلاد الريف فكان للمغاني حارة مفردة يعمل فيها من الفساد جهراً ما يقبح ذكره ومن اجتاز بها غلطاً ألزم بأن يزني بخاطئة فإن لم يفعل فدى نفسه بشيء»^(١٢).

المفهوم — إذن من هذين الموضعين — أن ضمان المغاني كان من الأشياء مستقبحة الحدوث، وأن الذي ساعد على إبطاله إعانة بعض العلماء للسلطان على

(١١) نفسه ص ٥٨ — ١/٥٩ .

(١٢) نفسه ص ١/١٢٧ .

إبطاله في ساعة ضعف وتمرض يعاقب السلطان فيها ويتنكس.

لكن هذا المفهوم يعد ناقصاً — تماماً — بدون إضافة بعد جديد له لا يوجد إلا في تراجم الوفيات، حيث ورد في ترجمة «دنيا بنت الأقباعي» المغنية الدمشقية — ضمن وفيات حولية تسع وسبعين وسبعمائة — ما نصه: «.. وهي كانت من أعظم الأسباب في إسقاط مكس المغاني، سألت السلطان في ذلك فأجاب إليه، ثم أراد ابن آقبا آص إعادته فتكلم الشيخ ضياء الدين والشيخ سراج الدين البلقيني مع الأشرف وهو ضعيف فأنكر على ابن آقبا آص ذلك واستمر إبطاله»^(١٣).

وهكذا لا يمكن اعتماد الحوادث وحدها في هذا الموضوع وأمثله بدون الرجوع إلى التراجم لاستكمالها وتتبع خيوطه وأبعاده.

أما بخصوص العلم المشار إليه وهو «برهان الدين بن جماعة» فإننا نجدنا مع «ابن حجر» وقد ترجم لهذه الشخصية الفذة من خلال تدوينه للأحداث المتعلقة به — عن عمد وقصد إلى ذلك — وإلا لأنت تلك الحوادث مجردة كمثيلاًتها في مواضع كثيرة من كتابه.. حيث نطالع في أولى حوليات كتابه — سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة — وحتى سنة تسعين وسبعمائة حلقات من جوانب ترجمته تشبه إلى حد كبير حلقات مسلسل في حبكة قصصية تبرزه أمامنا فارساً ذا شخصية تاريخية متفردة في عصره؛ والسر في تفردا هو إتيانها بما لا يعد مألوفاً في عصرها وإن كان مألوفاً أن يرد منها مثل ذلك.

أشار «ابن حجر» في حولية ثلاث وسبعين وسبعمائة إلى خبر هذا نصه: «.. وفيها استقر القاضي برهان الدين بن جماعة في قضاء الشافعية عوضاً عن أبي البقاء السبكي.. واستمر المنصب شاغراً إلى أن وصل الخطيب برهان الدين بن

(١٣) نفسه ص ١٦٤/١ .

جماعة في خامس جمادى الآخرة»^(١٤) .

يمكننا أن نعتبر هذا الخبر مفيداً في موضعه، تاماً لمقصده، فهو مماثل لمثل ما ورد في غيره من حالات الاستقرارات الوظيفية، وكان فيه كفاية لو أن «ابن حجر» كان يبتغي من إيراد الأخبار مجردة عن ذوات القائمين بها، لكنه عمد إلى ما هو أبعد من ذلك.. إلى الترجمة لابن جماعة بسرد أخباره، ولذا نجده يذيل على هذا الخبر بقوله: «.. وكان برهان الدين — حين عُزل أبو البقاء — بدمشق زائراً لأهله من ربيع الأول ورجع بعد خمسين يوماً بعد أن فوض له النائب نظر القدس والخليل فخالقه البريدي في الطريق، فأمره النائب بلحاقه إلى القدس فلحقه، فخطب في السادس عشر من جمادى الأولى خطبة بليغة تعرض فيها لتوديعهم فأبكاهم وتوجه على البريدي، فلما اجتمع بالسلطان عرض عليه المنصب، فاشتراط شروطاً كثيرة فالتزم له السلطان بها، ولبس الخلعة وركب في حشمة عظيمة وأبهة زائدة، فراح الناس إلى تهنتته حتى القاضي المعزول فرحاً منه به لعلمه برياسته وحسن سياسته»^(١٥).

ليس الهدف إذاً لدى «ابن حجر» محصوراً في إيراد خبر عن استقرار وظيفي من مئات الأخبار الواردة بخصوص ذلك في سائر جوانب الكتاب، ولكن من وراء ذلك بُعد آخر هو التعريف تباعاً بهذه الشخصية حتى تكتمل أعمالها فلا يكون بعدها إلا التعريف بأبرز مكوناتها، لقد ذيل على هذا الخبر الخاص بالاستقرار الوظيفي بأمور أبرزت الآتي:

- (١) موضع الآتي وأصله، حيث وجوده في دمشق «زائراً لأهله».
- (٢) وظائفه فيما قبل توليه قضاء الشافعية «الخطابة» بالإضافة إلى «نظر القدس والخليل».

(١٤) نفسه ص ١٢ — ١/١٣ .

(١٥) نفسه ص ١/١٣ .

(٣) شعبيته في موضعه، وفي الموضع المنقول إليه: «فخطب.. خطبة بليغة تعرض

فيها لتوديعهم فأبكاهم»، «فراح الناس إلى تهنئته».

(٤) عزمه وقوة إرادته وغلبة شخصيته «فلما اجتمع بالسلطان عرض عليه المنصب

فاشترط شروطاً كثيرة فالتزم له السلطان بها».

(٥) مكانته في نفوس الخاصة والعامة «ولبس الخلعة وركب في حشمة عظيمة وأبهة

زائدة» وفرح الناس به بالإضافة إلى خروج القاضي المعزول لتلقيه «فرحاً منه

به».

(٦) بيان ما يتمتع به من سمعة علمية فخطبته «بليغة» كما أن له «رياسة وحسن

سياسة».

هكذا أفصح عن خبر وهو الاستقرار الوظيفي، ثم قرنه بمعلومات لا بأس بها

عن هذه الشخصية في أولى جوانب التعريف بها.

ونترك هذه الحولية وهذا الموضع لنجدنا مرة ثانية مع «ابن جماعة» في حولية

ست وسبعين وسبعمائة، حيث يطالعنا «ابن حجر» عنه بخبر مفاده: «.. وفي رابع

عشري ذي الحجة عزل القاضي برهان الدين بن جماعة نفسه من القضاء بسبب

تثقيب بعض الأمراء عليه في أمر بعض الموقعين فراسله السلطان فامتنع فأرسل إليه

بهادر — أمير آخور — فحلف عنده بالطلاق أن السلطان حلف بالطلاق أنه إن لم

يجب إلى العود نزل إليه إلى بيته وألزمه به، فلم يزل به إلى أن ركب معه إلى القلعة

فاجتمع بالسلطان فسأله أن يعود وألح عليه فكان آخر كلامه الإمهال إلى أن

يستخير الله — تعالى — في ليلته، فلما أصبح طلع إلى القلعة في الخامس والعشرين

من ذي الحجة واشترط شروطاً أجابه السلطان إليها ونزل في أبهة عظيمة إلى الغاية

وازدادت مهابته وتصميمه في الأمور»^(١٦).

(١٦) نفسه ص ١/٧٣ .

في هذا الموضع — كذلك — لم يأت الخبر مجرداً، وإنما ربط «ابن حجر» بينه وبين شخصية «ابن جماعة» بعد أن تتبعه في يومين متتاليين أفصح في الإخبار عنهما بالآتي:

تصميم «ابن جماعة» في الأمر، فهو لا يقبل «تثقييل بعض الأمراء عليه في أمر بعض الموقعين» فاندفع يعزل نفسه والسلطان يرأسه فيمتنع ويرسل إليه مغلفاً الأيمان في العود فلا يكون طلوعه إليه إلا بعد جهد جهيد «فلم يزل به إلى أن ركب معه إلى القلعة» والسلطان يسأل ملحاً في العود و «ابن جماعة» لا يكون منه إلا الإرجاء و «الإمهال إلى أن يستخير الله — تعالى — في ليلته».. كل هذا لا ينزل من مكانته لدى الناس، حتى لو كان منهم السلطان «فلما أصبح طلع إلى القلعة.. واشترط شروطاً أجابه السلطان إليها» وإنما يكون معه الإجلال والتعظيم حيث «نزل في أهبة عظيمة إلى الغاية» وكذا زيادة مكانته في نفوس الناس، وزيادة اعتداده بعمله «وازدادت مهابته وتصميمه في الأمور».

وكان «ابن حجر» قبلها قد أورد له دوراً في إبطال «ضمان المغاني» و «مكس القرايط»، فأظهر له ولرجال الدين دوراً في رفع المعاناة عن الناس وصوناً لهم من القبائح.

ثم نجدنا مع «ابن جماعة» في موضع آخر من الحوادث وقد ترسخت مكانته في الأذهان، حيث ورد بخصوصه في حوادث حولية تسع وسبعين وسبعمائة ما نصه: «.. وفي شعبان عزل القاضي برهان الدين بن جماعة نفسه عن القضاء لوقوع هذه الفتن، وكان قد انقطع عن حضور المواكب»^(١٧).

وهنا يتضح مدى اعتداده بنفسه وبوظيفته، ونجدنا للمرة الأولى مع «ابن

(١٧) نفسه ص ١٠٦/١.

حجر» وقد أورد خبراً عن «ابن جماعة» مجرداً، ولعل السر في ذلك مرده إلى ترسيخه قبلها في الأذهان لطبيعة «ابن جماعة» وتصرفاته، مما جعله ليس في حاجة إلى تذييل أو تعليق في هذا الموضع.

ولا يتركنا نبحت عن مصيره، ولكن يشير بعد برهة إلى قوله: «.. وتوجه ابن جماعة إلى القدس على الخطابة والتدريس كعادته»^(١٨). مع حظ البلقيني عليه.

وفي حولية إحدى وثمانين وسبعمائة نجدنا مع «ابن جماعة» في خبر هو: «.. وفيها توجه فخر الدين إياس في طلب برهان الدين بن جماعة لشكوى الناس من سيرة ابن أبي البقاء، فوصل في أواخر صفر، فخرج لملتهاه وطلع بصحبته إلى برقوق.. ثم طلب صبيحة قدومه إلى القلعة وخلع عليه ونزل في موكب حافل في ثلاثة عشر من الأمراء الكبار فارتجت له القاهرة بحيث كان أعظم من يوم الحمل، وياشر بحرمة ومهابة أعظم من المرة الأولى..»^(١٩).

وفي هذا الموضع — أيضاً — أفصح «ابن حجر» عن مكانة «ابن جماعة» لدى السلطة والناس في عصره، حيث أعادته السلطة إلى القضاء وقد عزل برغبته لا برغبته، ثم تتجمل معه في تكريمه تجملاً زائداً، حيث يحفه الأمراء وقد خلع عليه، ويكون من الناس ما لا يعهد مع مثله حتى مع السلطان «بحيث كان أعظم من يوم الحمل» وكل هذا لا يثنيه عن مباشرة عمله «بحرمة ومهابة أعظم» وفي ذلك إبراز لجوانب مهمة من حياته وسماته وعلاقاته بأحداث وشخصيات عصره. مضافة إلى الإخبار عن علاقاته بأقرانه.

ثم نجدنا مع «ابن جماعة» في موضع آخر في صراعه مع القاضي الحنفي، وفي

(١٨) نفسه.

(١٩) نفسه ص ١٩٠.

غيره عن ترتيبات «ابن جماعة» مع نوابه.. إلى أن نجد «ابن جماعة» وقد عزل نفسه من القضاء حرصاً على كرامته، وذلك في حولية أربع وثمانين وسبعمائة، حيث يشير إلى امتناع «ابن جماعة» من الحكم إثر خلاف مع برقوق الذي كان قد افتعل ذلك معه لأنه «كان يعرف قوة نفس برهان الدين بن جماعة فخشى ألا يوافقه إذا رام أن يتسلطن، ويعارضه فلا ينتظم أمره فعمل على عزله وتولية من لا يخالفه لكونه هو الذي أنشأ ولايته»^(٢٠). ثم يشير بعد ذلك إلى استقراره في قضاء الشام بعد موت «أبي البقاء»، ودخول «ابن جماعة» دمشق قاضياً.. حتى يصل بنا إلى أحداث حولية تسعين وسبعمائة لنجدنا أمام خبر هو:

«... وفيها استقر سري الدين المسلاقي.. في قضاء الشافعية عوضاً عن برهان الدين بن جماعة، وحمل إليه التقليد إلى دمشق في أواخر شعبان..»^(٢١) هكذا مجرداً. وهنا نتساءل: أين ذهب «برهان الدين بن جماعة»؟ ولم استقر غيره في منصبه؟ وهل توجه على عادته إلى الخطابة والتدريس بالقدس؟

لا يتركنا «ابن حجر» لكل هذه التساؤلات، وإنما يطالعنا في نفس الحولية وفي أولى ترجمات وفياتها بترجمة متممة لأخباره عنه مكملة لهذا الخبر^(٢٢). لقد مات «ابن جماعة» فلا أقل من التعريف بمكونات هذه الشخصية الفذة التي تعاطف معها وبهر بمواقفها مطالعيه. ولذا فإن ترجمته له تحتوي على العناصر التالية:

(١) سلسلة نسبه.

(٢) المولد والوفاة تاريخاً.

(٢٠) نفسه ص ٢٥٤ — ١/٢٥٥

(٢١) نفسه ص ١/٣٥١ .

(٢٢) نفسه ص ١/٣٥٥ .

- (٣) مناهل علمه.
- (٤) وظائفه، ومكانته العلمية.
- (٥) شغفه بجمع الكتب ومصائرها بعد وفاته. وإن وردت أخبارها — كذلك — في أخبار وترجمات غيره^(٢٣).
- (٦) قرضه للشعر.
- (٧) امتداح أهل عصره له.

وبمضاهاة عناصر هذه الترجمة، وما ترجم «لابن جماعة» في أحداث حوليات «الأنباء» يمكننا أن نستخلص الآتي:

- (١) إدراك «ابن حجر» للعلاقة بين التراجم والحوادث مما جعله يجتزئ معلوماته ويوزعها على أحداث وترجمات الوفيات في حولياته، حيث وجدناه في حقيقة الأمر يترجم لابن جماعة حيث يورد أخباره.
- (٢) عمد بأسلوبه وطريقة عرضه لمعلوماته إلى شحن القارئ عاطفياً ليتجاوب مع هذه الشخصية حتى تسير مراحل كتاباته عنها كي يصل إلى غرضه من الحبكة التاريخية، ولذا وجدنا أنفسنا مع «ابن حجر» وقد أورد «لابن جماعة» بادئ ذي بدء استقراراً وظيفياً بحكم عزل غيره، ووجدنا أنفسنا في آخر الحوليات المتعلقة «بابن جماعة» معه في استقرار وظيفي لغيره في موضع عمله، مجهول السبب لتكون الترجمة «لابن جماعة» في ذيل الحولية عنها بمثابة الخبر المتمم لسائر الحوادث. ويكون بذلك قد جعل إيراد الوفاة مترجمة في هذا الموضع خبراً متمماً ومكملاً لسائر الأخبار الدائرة حول هذه الشخصية، تماماً كما جعل مواضع الحوادث جوانب للصورة الكلية لشخصية المترجم له لا

(٢٣) نفسه ص ٢٩٩، ٣/٣٥٦.

تكتمل إلا بترجمته ضمن الوفيات لإفصاحها عن دوافع هذه الشخصية، والسبب في توجيهها هذه الوجهة وهو مع ذلك، وفي دقة متناهية لا يكرر نفسه، اللهم إلا في موضع توضيح وتقدير منه له: «.. ثم خطب إلى قضاء الديار المصرية فوليه مرتين بصرامة وشهامة وقوة نفس وكثرة بذل وعزل نفسه مراراً ثم يسأل ويُعاد حتى هم السلطان في بعض المرات أن ينزل إليه بنفسه ليرضاه»^(٢٤).

(و) **علاقة السيية:** حيث تظهر العلاقة بين التراجم والحوادث في هذا الجانب متمثلة في ذكر الأوبئة والطواعين، أو الفتن والحروب وما يعقبها من سرد لوفيات تكون مترتبة عليها، وتكون الحوادث متسببة فيها، وتكون الوفيات تبعاً لذلك تأكيداً لمثل هذا النوع من الحوادث، وتقريراً لها.

ومن أمثلة ذلك ما ورد في حوادث حولية تسع عشرة وثمانمائة، حيث أشار إلى وباء الطاعون قائلاً: «.. وأبتدأ الطاعون بالقاهرة فبلغ في نصف صفر كل يوم مائة نفس، ثم زاد في آخره إلى مائتين وكثر ذلك حتى كان يموت في الدار الواحدة أكثر من فيها، وكثر الوباء بالصعيد والوجه البحري حتى قيل إن أكثر أهل هو هلكوا (وكثر) في طرابلس حتى قيل إنه مات بها في عشرة أيام عشرة آلاف نفس.. وكذلك وقع في القدس وصفد وغيرها..»^(٢٥).

ويتقرر مفهوم ذلك بما ورد في ذيل الحولية نفسها من إيراد سرد لترجمات الوفيات تتلاحق في خواتمها — غالباً — عبارات «مات مطعوناً»، «مات في الطاعون»، «مات بالطاعون».. ومن هؤلاء الذين ماتوا بالطاعون: أصيل الدين

(٢٤) نفسه ص ١/٣٥٥ .

(٢٥) نفسه ص ٣/٧٨ .

الأشليمي، وابن الأديب الشافعي، وابن الجيتي، وابن يوسف الكردي الدمشقي، وأمين الدين الطرابلسي، وجلال الدين الخشبي المدني، وابن علوي الحسباني، والعز بن جماعة، والشمس بن القطان، والنجم الحنبلي، والكوم ريشي، وابن قلاف الدين الحلواني، وقطب الدين الأبرقوهي، وابن ساري الهواري، وسيف المارديني..^(٢٦).

ولا يخفى ما لهؤلاء من ذوات وشخصيات وملكات متنوعة، بالإضافة إلى تباين أصقاعهم ومنهم من «اشتد أسف الناس عليه، ولم يخلف بعده مثله»، كما أن منهم من كان «مشكور السيرة نبياً في فنه».. مما يوضح فداحة الخسارة والخطب الجلل.

أما ما يتعلق بالوفيات التي تكون الفتن والنكبات السياسية والحربية سبباً فيها، فمنها ما ورد بخصوص طروق «المغول» للشام وتغلبهم عليها، حيث ورد في حولية ثلاث وثمانمائة ما نصه: «.. فلما بلغ ذلك تمرلنك نازل حلب.. والتقى الجمعان.. وتمت الهزيمة على العسكر الإسلامي.. وهجم عسكر تمرلنك البلد فأضرموا فيها النار وأسروا النساء والصبيان، وبذلوا السيوف في الرجال والأطفال حتى صار المسجد الجامع كالجزرة.. ثم تعدى أصحابه إلى نهب القرى المجاورة والمتقاربة والإفساد فيها.. وجافت النواحي من كثرة القتلى منه، وكادت الأرجل ألا تغطى إلا على جثة إنسان، وبني من رؤوس القتلى عدة مآذن منها ثلاثة في رابية ابن خاجا، وهلك من الأطفال الذين أسرت أمهاتهم، ومن الجوع أكثر ممن قتل»^(٢٧).

ثم نجدنا مع وفيات الحولية ذاتها وقد انعكست على ترجماتها هذه الأخبار، حيث أشار في ترجمته لابن علي التادلي — قاضي المالكية بدمشق — إلى أن موته كان

(٢٦) نفسه ص ١٠٥ — ٣/١٢٤ .

(٢٧) نفسه ص ١٣٤ — ٢/١٣٦ .

«بعد أن حضر الواقعة مع اللنكية وجرح جراحات فحمل فمات قبل سفر السلطان من دمشق»^(٢٨) ، وفي ترجمة «إبراهيم بن مفلح» يشير إلى دوره في النكبة قائلاً: «.. ولما طرق اللنك الشام كان ممن تأخر بدمشق فخرج إلى اللنك وسعى في الصلح وتشبه بابن تيمية مع غازان، ثم رجع إلى دمشق، وقرر مع أهلها أمر الصلح فلم يتم له الأمر، وكثر ترداده إلى اللنك ليدفع عن المسلمين فلم يجب سؤاله وضعف عند رجوعهم.. ومات بعد الفتنة بأرض البقاع»^(٢٩). وهذه العبارة تضيفي بُعداً تاريخياً على حدث ورد بخصوص دوره في الحوادث وهو: «.. فأغلق أهل دمشق أبوابها، وركبوا أسوارها وتراموا مع اللنكية فقتل منهم جماعة، فأرسل تمرلنك يطلب من أهل البلد رجلاً عاقلاً يتكلم معه في أمر الصلح، فأرسلوا إليه القاضي (برهان الدين بن مفلح)، فرجع وأخبر أنه تلطف معه في القول، وسأله في الصلح فأجابه، فأطاعه كثير من الناس، وأبى كثير منهم فأصبحوا.. وقد غلب رأي من أراد الصلح.. فكتب لهم أماناً قرىء على المنبر يتضمن أنهم آمنون على أنفسهم وأهاليهم، وفتح الباب الصغير واستحفظ عليه بعض أمراء تمرلنك لئلا ينهب التتار البلد.. فتزايد البلاء على أهل البلد، وندموا حيث لا ينفع الندم»^(٣٠).

كما انعكست على مادة الوفيات — في هذه الحولية — جوانب متعددة من الأحداث اللنكية في الشام حيث أتت الوفيات مسببة عن غزو التتار وتعذيبهم لذواتها، ثم أضافت بُعداً آخر لتلك الحوادث، فمن الناس من فر خوفاً من الواقعة، ومنهم من عوقب فمات تحت العقوبة أو إثرها وإن تعددت العقوبات، ومنهم من أُعِدَّ للعقاب فنجاه الله بغير ليعتقد ويحلى سبيله، ومنهم من أُسر فقتل غرقاً أو صبراً أو قتلاً، ومنهم من فك أسره وأطلق، ومنهم من ابتلي في ماله وأهله وولده، ومنهم من

(٢٨) نفسه ص ٢/١٥٠ .

(٢٩) نفسه ص ١٥٠ — ٢/١٥١ .

(٣٠) نفسه ص ١٣٧ — ٢/١٣٨ .

تعامل مع العدو فحصل له سعود أو نخوس، ومنهم من كانت النكبة سبباً في غناه وتكثير ثروته^(٣١)..

وخلاصة القول أن «ابن حجر» قد جعل وشائج صلة بين «حوادث» و «ترجمات» كتابه، باعتبار أنه يتوخى التأريخ بالحدث والترجمة معاً، وساعده على ذلك أمور لعل أهمها:

(١) أنه كان يكتب حولياته بعد انقضاء أمد بعيد من حدوثها، مما جعل الرؤية للأحداث كلها مكتملة تحت ناظره، على العكس من هؤلاء الذين يكتبون الحوادث في ذات السنة من وقوعها مما جعلها تأتي متراسة في شكل يوميات.

(٢) مشاركته في هذه الأحداث واتصاله بها وبكثير من الشخصيات المشاركة فيها مما جعله يربط بينها وبين الحوادث.

(٣) حرصه على الشمول الموضوعي لأحداث حولياته، حيث لم ترد أخباره في موضعها مجردة، وإنما أتت — في غالبيتها — مقرونة بعلاقتها ومسبباتها مما اضطره أن يورد جوانب عديدة من تراجم الأفراد والشخصيات فيها، فوجد نفسه في الكثير من الترجمات ليس بمكتته الإتيان بجديد في إخباره عن وفياتهم، فلم يترجم لهم إلا إحالة إلى تلك الجوانب التي شابت أحداثهم في مواضع الأحداث، أو فصل بين جانبين من حياتهم، الجانب الأول متعلق بمشاركتهم في الحوادث محيلاً إلى تلك المواضع في ترجماتهم، والجانب الثاني متعلق بمكوناتهم الشخصية والمؤثرات الثقافية والبيئية وغيرها.

(٤) فضلاً عن أن «ابن حجر» ليس بمكتته الفصل بين التراجم والحوادث باعتبار أن أصحابها هم الذين شاركوا في الحوادث تأثيراً وتأثراً. فالعلاقة إذن طبيعية فيما بينهم.

(٣١) راجع بشأن ذلك وفيات حولية ثلاث وثمانمائة.